

# نظرة عزيز العظمة للخلفاء الأمويين من خلال كتابه ظهور الإسلام في آخر الفترة القديمة

بشينة بن حسين<sup>١</sup>

## المقدمة

يُعتبر كتاب الأستاذ عزيز العظمة ظهور الإسلام في آخر الفترة القديمة من أهم الكتب التي تناولت فترة ما قبل الإسلام وفترة الإسلام الأول. وقد ركّز المؤرخ تحليله على ظهور الأديان الوثنية والتوحيدية في المجال المتوسطي وأساساً بالشام واليمن والعراق والمجال الفارسي الساساني. وحلّل كيفية ظهور الإسلام في بيئة مسيحية ويهودية. وقد ارتبطت كل هذه الأديان بالمعطي السياسي والإمبراطوري. كما بين المؤرخ أنّ الإسلام تركّز كدين بمساعي النبي محمد. بينما أكسب الأمويون الدولة طابعاً عربياً-إسلامياً. وأصبحت الدولة في المحيط العربي-الإسلامي ذات طابع إمبراطوريّ.

واخترنا تحليل العنصر المتعلّق بالخلافة الأموية في الكتاب لأنه عبارة عن خلاصة لكل الكتاب (نشأة الأديان الوثنية ونشأة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية). فلم يكن بوسع الإسلام كدين ودولة أن يخرج من حدوده بالجزيرة العربية لولا مجهود الأمويين. فهو يعبر عن نشأة الدولة الأموية في مجال إمبراطوري روماني ثم بيزنطي. وقد ساعدت بيئة الشام الأمويين على تركيز دولة عربية إسلامية متزامية الأطراف بفضل مؤسسات ملكية كمظاهر السلطة والقصور لكنهم سيركزون الإسلام والعروبة بتعريب النقود وبناء قبة الصخرة ببيت المقدس والجامع الأموي بدمشق.

وقد حدّد المؤرخ عزيز العظمة الخصائص الكبرى للخلافة الأموية ومقدرة الخلفاء الأمويين على الربط بين الفترة الماقبل إسلامية في الحجاز وفي الشام وعلى خلق نموذج «جديد» لأمبراطورية إسلامية. ومن بين هذه المواضيع التي خاض فيها المؤرخ تطوير الأمويين لنظام الحكم والطابع العربي للخلافة الأموية وتعريب النقود وتركيز الهوية العربية الإسلامية والإنجازات المعمارية الأموية وإيديولوجيا الملك الأموي أو خلافة الله ومكانة الرسول في الإيديولوجيا الأموية و الإهتمام بالقرآن. وقد إرتأيت من موقعي كدراسة للفترة الأموية أن أتفاعل مع أستاذنا الكريم عزيز العظمة في مختلف المحاور والمواضيع التي درسها في كتابه والمتعلقة بالدولة الأموية.

(١) أستاذة محاضرة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة -الجمهورية التونسية وعضوة مخر إشغال الأرض والتعمير وأمات العيش بالمغرب القديم والوسيط برئاسة الأستاذ عبد اللطيف مرابط.

## تطوير الأمويين لنظام الحكم

وقد خصص المؤرخ الجزء الأخير من كتابه<sup>٢</sup> لتحليل الدور الذي لعبه الأمويون في تكوين قوة سياسية عربية إسلامية وهي الدولة الأموية التي تأسست في المجال الجغرافي البيزنطي أو مملكة الغساسنة. وقد كان لهذه الدولة دور كبير في تركيز مؤسسات الإسلام والعروبة. كما ذكر المؤرخ عزيز العظمة الأمويين في مواضع أخرى من كتابه بعلاقة بإيديولوجيا الدولة والبروتوكول وضبط المصحف. فقد تمكن الأمويون من تطوير الظروف السياسية والاجتماعية التي تطورت في الفترة الماقبل إسلامية - وهي فترة متميزة بتطورها السريع - وكان تاريخهم مرتبطاً بالتاريخ القديم للشرق، وليس له علاقة بتاريخ الحجاز أو الجزيرة العربية<sup>٣</sup>. واستغل العرب المسلمون التأثيرات والتجارب الإمبراطورية الساسانية-البيزنطية لتكوين دولتين، الدولة الأموية والدولة العباسية. وكان القضاء على السلطة البيزنطية حدثاً مهماً لأنها كانت تسيطر على رقعة جغرافية مهمة وهي الشام ومصر والمغرب<sup>٤</sup>.

وترجع الجذور الملكية الأموية للموروث البيزنطي المتأصل في الشام. كما كانت الكتابات السريانية تؤكد وراثة العرب للساسانيين والروم. فقد كان تقديس الإمبراطور كالإله في عهد ديوكليسين وتواصل العمل بذلك لدى الخلفاء<sup>٥</sup>. كما تأثرت الخلافة بالنظام الملكي الساساني والنظام الملكي الروماني بالشرق والبيزنطي من حيث الملكية والتوجه الإمبراطوري<sup>٦</sup>. فقد ورث الخلفاء الأمويون التقاليد الملكية والسياسية الرومانية والبيزنطية لكنهم أدخلوا عليها الطابع العربي الأرستقراطي ومقومات الإسلام. وأضافوا إليها طابعاً خاصاً داخل البلاط وفي المواكب العامة.

ويرجع في إعتقادي تأثر الأمويين بالبيئة الشامية لتجربتهم الطويلة في الشام. فقد كلف الخليفة عمر بن الخطاب يزيداً بن أبي سفيان ضمن جملة من القواد بفتح الشام. وعين في ما بعد معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام. وقد كان هذا الأخير يتمتع بالدهاء والحكمة مما مكّنه من استعمال الموروث السياسي البيزنطي وتوظيفه لمصلحته. وقد أحدث الخليفة معاوية بن أبي سفيان انتقالاً هاماً في نوعية الحكم بتأسيسه للحكم الأسروي. فقد أحدث بدعة في التاريخ السياسي العربي وبالتحديد القرشي الذي يرتكز على اختيار أسنّ سيد في القبيلة. واستوحى معاوية بن أبي سفيان

(2) Aziz Al-Azmeh, *The Emergence of Islam in Late Antiquity Allāh and his people*, Cambridge University Press, United Kingdom-New York, 2014, Chapter 8, *Retrospective and prospective Islam in Late Antiquity*, p.498-527

(٣) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٩٨

(٤) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٩٨

(٥) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٩٤-٩٣

(٦) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٩٦

فكرة الملك<sup>٧</sup> من الخليفة عثمان بن عفان. وكانت الدنيوية والمحابة، من أكثر المآخذ والتهم الموجهة إليه من قبل معارضيه من الصحابة والقراء. فقد قرّب عثمان القرابة القريبة منه وولاهم المناصب الهامة في الدولة ووزّع عليهم الأموال. كما أنّه بنى القصور ولبس الحرير وانتفع من أموال بيت المال -وهي أموال على ملك المسلمين جميعاً وأساساً المقاتلة<sup>٨</sup>.

واستمرت هذه الدنيوية في الفترة المروانية وأساساً في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. وتتمثل هذه الدنيوية في التمتع بملاذات الحكم من شرب للخمر والاستمتاع بأطيب أنواع الأكل وإمتلاك الجوارح مختلف أصنافهن<sup>٩</sup>. كما مثل الخليفة عثمان بن عفان، إن عمّ معاوية الأساس الإيديولوجي لشرعيته التاريخية. فقد كان معاوية من الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة سنة ٨ للهجرة أو المؤلفة قلوبهم. وكان أبو سفيان بن حرب سيّد المعارضة القرشية ضدّ الرسول. لكنّ النبي عفا عنه عند فتح مكة وشرّفه بقوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»<sup>١٠</sup>. كما عينه الرسول كاتباً له. وبالتالي كان معاوية بن أبي سفيان «يفتقر» للسابقة والقدمة في الإسلام مقارنة بالصحابة من الطبقة الأولى<sup>١١</sup>. وكان تعيين الخليفة عمر بن الخطّاب له والياً على الشام بمثابة المكافأة لأحد عناصر الأستقرارية المكيّة على مساهمته في تركيز الإسلام رغم ضعف سابقته في الإسلام. وبرهن معاوية بن ابي سفيان عند ولايته للشام على حمايته للدولة الإسلاميّة وتركيزه للجهاد في الشام التي تعتبر ثغراً لقبها من بيزنطة<sup>١٢</sup>. وأسس معاوية الأسطول البحري الإسلامي في عهد الخليفة عثمان حيث قام بالجهاد في جزيرة رودس وكريت<sup>١٣</sup>. ثمّ عمل معاوية منذ ولايته للشام وأساساً بعد مقتل عثمان في يوم الدار من تقلّد مسؤوليّة القصاص لوليّه المظلوم<sup>١٤</sup>. ونصب في مسجد دمشق قميص عثمان الملتخّ دماً وأصابع نائلة بنت الفرافصة الكلبية -زوجة عثمان الكلبية-، وحرّض مقاتلة الشام على القصاص للخليفة المظلوم وابن عمّه، فاكتسب شرعيّة تاريخيّة لدى أهل الشام الذين رأوا أنّه ينتمي لعائلة الرسول. كما أنّه كان بالنسبة لهم الأجدر بالخلافة<sup>١٥</sup>.

(٧) البعقوي، تاريخ البعقوي، ليدن وبريل، ١٩٦٩، ج ٢، ص ٢٧٦؛ بثينة بن حسين، الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة والمطبعة الرسميّة، تونس، ٢٠٠٨، ص ٢٩٢

(8) Hichem Djait, *La Grande Discorde Religion et politique dans l'Islam des origines*, Gallimard, Paris, 1989, p. 229-230

(٩) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٠٧

(١٠) الطبري مصدر مذکور، ج ٣، ص ٦١

(١١) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٢٧٧

(١٢) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٢٤

(١٣) البلاذري فتوح البلدان، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص ٢١٥-٢٠٨

(١٤) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٢٨٨٠

(15) Hichem Djait, *La Grande Discorde*, p.411.

ومكّنته الظروف السياسيّة بعد مقتل عليّ بن أبي طالب-خصمه في صفّين- من تولّي الخلافة بعد عجز الحسن بن عليّ رغم سابقته وقدمته وقربته من الرّسول من السّيطرة على الأوضاع بالكوفة. واعتبر معاوية نفسه الأجدر سياسياً بالسلطة لسنّه وتجربته ومقدرته السياسيّة. كما أنّ مصالحة الحسن بن عليّ له ومبايعة النّاس له سيمنحه شرعيّة جديدة لتولّي الخلافة<sup>١٦</sup>. وسيؤسّس معاوية بن أبي سفيان بعد تولّيه الخلافة عنصراً جديداً من عناصر إيديولوجيّته بلعنه لعليّ بن أبي طالب على المنابر<sup>١٧</sup>. فقد كان يحسّ في قرارة نفسه بنقص شرعيّته التّاريخيّة بالمقارنة مع أبناء الصّحابة.

وأسس الخليفة معاوية بن أبي سفيان إيديولوجيا الدّولة العربيّة إستناداً لجذوره العربيّة القرشيّة.

### الطابع العربي للخلافة الأمويّة

امتاز الأمويّون بطموحهم الواسع وبروح المبادرة التي ترجع لجذورهم الأرسقراطيّة العربيّة<sup>١٨</sup>. وقد رجح الأمويّون للأساطير العربيّة، واختلقوا لمعاوية بن أبي سفيان مكانة مميّزة في الأساطير اليمنيّة خاصّة من قبل النسابة اليمنيّة الذين أرخوا للملك العربي اليمني القديم ودعّموا علم الأنساب. وأصبح النسابة كعبيد بن شرية ينسبون معاوية بن أبي سفيان ملوك حمير واليمن أي أنّ ملكه ضارب في القدم. ويرتبط هذا الملك بالإسلام وموقعه في النّص القرآني. واعتبر معاوية نفسه سليل الملكيّة الحميريّة وهو الوحيد الوارث لهذه الملكيّة هو وسلالته. وقد أوكل له الله هذا الملك «العالمي»<sup>١٩</sup>. كما ربط النسابة معاوية ابن أبي سفيان بأصوله القرشيّة ونشأة الملك العربي في عهد قصي بن كلاب<sup>٢٠</sup>.

ويشمل هذا الطابع العربي في الدّولة الأمويّة في إعتقادي عدّة جوانب مرتبطة بشارات الملك أو البروتوكول والإيديولوجيا -إيديولوجيا الدّولة العربيّة. فقد أحدث الخلفاء الأمويّون تقليداً ملكيّاً في البلاط الأموي يعود للفترة الماقبل إسلاميّة وهو يتمثّل في تدوين كلّ الأخبار المتعلّقة بالعرب والعجم والشّعري. وكلف الخليفة معاوية بن أبي سفيان عبيد بن شرية الجرهمي بتدوين أخبار ملوك العرب والعجم. واهتمّ معاوية في مسامراته بأنساب العرب<sup>٢١</sup>. وتتمثّل إيديولوجيا الدّولة العربيّة في إيديولوجيا الانتماء لقريش. فقد كان معاوية بن أبي سفيان مدرّكاً ضعف سابقته وقدمته في الإسلام

(١٦) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٢٧٧

(١٧) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٢٨٢

(١٨) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٠٠

(١٩) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١١

(٢٠) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١١

(٢١) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣١١

بالمقارنة مع عليّ بن أبي طالب، فاستند على انتمائه لقريش كقبيلة تسود العرب في ما قبل الإسلام، ولأمية التي كانت تمثل بيت قريش في نفس هذه الفترة. وبالتالي أصبح بنو أمية مختارين من الله لتولي الخلافة<sup>٢٢</sup>.

كما ارتكزت إيديولوجيا الدولة العربية على الإقليمية الشامية التي تتمثل في تعويل الخلفاء الأمويين على جند الشام في القتال ابتداءً من ولاية معاوية للشام وحربه ضد عليّ بن أبي طالب ثم في فترة الخلافة. فقد ناصر جند الشام معاوية في حربه ضد عليّ وللمطالبة بالقصاص للخليفة المظلوم. وأرسلهم الخليفة يزيد ابن معاوية لتأديب أهل المدينة ومعاقبتهم في الحرّة. وضرب جند الشام الكعبة بالمنجنيق لإجبار عبد الله ابن الزبير على البيعة<sup>٢٣</sup>. لكن إختيار أهل الشام كجيش للدولة الأموية كان يمثل إقصاءً لكل العناصر الأخرى في الدولة كمقاتلة العراق وأهل الحجاز. وكان لهذا التوجّه الإيديولوجي أثره على ضعف الشرعية الأموية.

ويعتبر المؤرخ عزيز العظمة أنّ فترة عبد الملك بن مروان هي فترة أساسية لتركيز السلطة خاصة بعد الفتنة الثانية حيث رجعت الدولة إلى سالف عهدها في التطور. وكانت الدولة قوية وذات طابع امبراطوري وتتمحور قوتها الاقتصادية في الهلال الخصيب أو السواد بالعراق والشام ومصر. وتتمثل هذه القوة الاقتصادية في الخراج. ويرجع استقرار هذا المورد الاقتصادي لوجود المقاتلة أو الجند<sup>٢٤</sup>.

لكنّ هذه الوضعية كانت في اعتقادي وضعية هشّة حيث عرفت الدولة أزمة حادة في فترة الحجاج بن يوسف الثقفي لانقطاع مداخل الخراج والجزية بعد أن اعتنق عدد هامّ الإسلام من سكّان «أرياف» العراق. وأجبر الحجاج هؤلاء الموالي على الرجوع إلى رساتيقهم ودفع الخراج أو الجزية حتّى لا تتراجع مداخل الدولة المالية<sup>٢٥</sup>. كما أصبح مقاتلة العراق يمثلون خطراً على الدولة الأموية في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي لسياسة الدولة تجاههم والمتمثلة في تجمير البعوث أي إرسال المقاتلة إلى الثغور للجهاد وعدم السّماح لهم بالرجوع للعراق. كما أنّ فئة الأشراف خاصة منها اليمينية كانت ترى في سياسة الحجاج إذلالاً لها. وقد ظهر ذلك في ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي التي كادت أن تقضي على السّلمة الأموية بالعراق. فقد جمع الحجاج كلّ العناصر التي تثير البلبلّة بالكوفة والبصرة (بما فيها الأسياد والأشراف المعتدّين بانتمائهم القبلي) في جيش لقب «بجيش الطّواويس» وأرسلهم لزابلستان. وكان الحجاج يخطّط لإبقاء هذا الجيش بزابلستان وعدم السّماح له بالرجوع للعراق. وثار هذا الجيش وأطرد الحجاج وجيش الشام من العراق. وكاد

(٢٢) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٢١

(٢٣) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٣٢؛ بثينة بن حسين، الفتنة الثانية في عهد الخليفة يزيد بن معاوية منشورات الجمل، بغداد-

بيروت، ٢٠١٣، ص ٦٢٤-٦٣٠

(٢٤) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٩٨

(٢٥) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٧٢

أن يقضي على السّلطة الأمويّة لولا الامدادات العسكريّة للخليفة عبد الملك بن مروان<sup>٢٦</sup>. وسعى الحجاج لكسر قوّة المقاتلة العراقيين بتأسيس واسط وإقرار جند الشّام كقوّة إحتلال دائم للعراق<sup>٢٧</sup>. وجرد الكوفة والبصرة من السّلاح.

كما يتناول الدكتور عزيز العظمة خصوصيّة الأراضي الإيرانيّة التي اتّسمت بانقسامها إلى تيارات «إقليميّة» ممّا أدّى إلى تقسيم الإمبراطوريّة في فترة الخليفة هارون الرّشيد (٧٨٦-٨٠٩ م) إلى جزءين بين إبنيه.

ويرجع ذلك في اعتقادي إلى تطوّر ونضج الدّولة العبّاسيّة التي تمكّنت من صهر العناصر الأعجميّة المسلمة أي الموالي في منظومة الدّولة الإسلاميّة. بينما رفض الأمويّون من منطلق إيديولوجي إدخال الموالي في بوتقة الدّولة والمجتمع للمحافظة على نقاوة العنصر العربي.

ويستند المؤرّخ عزيز العظمة على جيبون ليؤكّد تطوّر الدّولة الإمبراطوريّة التي حافظت على الدّين الإسلامي ونشرته إلى حدود القرن العاشر وهو ما يعرف بالإسلام الكلاسيكي. فقد تمكّنت الدّولة الأمويّة من الانتقال من مرحلة تأسيس الدّين إلى مرحلة تركيز الأطر الدائمة للدّين والدّولة. وقد كان هناك تواصل بين الدّولة الأمويّة والدّولة العبّاسيّة. وكان هدف الأمويّين الأساسي، هو غزو القسطنطينيّة للتربّع على عرشها بينما تحوّلت أطماع الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الشّرق. وهذا ما دفع بالأمويّين في إعتقادي إلى تركيز إيديولوجيا الجهاد لتقوية شرعيّتهم التّاريخيّة. فقد ارتبط مفهوم الجهاد بنشأة الإسلام كدين ودولة حيث انطلق الرّسول من المدينة لتوحيد شبه الجزيرة العربيّة ابتداءً من مكّة. ووصل إلى حدود الشّام<sup>٢٨</sup>. وواصل الخليفة أبو بكر الصّدّيق سياسة الجهاد بشنّه حروب الردّة على القبائل الثّائرة أو المرتدّة<sup>٢٩</sup>.

وأطاح الخليفة عمر بن الخطّاب بالإمبراطوريّة الفارسيّة، وهي من أكبر الإمبراطوريّات في الفترة القديمة، كما فتح الشّام. وفتحت خراسان ومصر في عهد الخليفة عثمان بن عفّان. ثمّ توقّف الجهاد في فترة الفتنة الكبرى، واستأنف في فترة الخلفاء الأمويّين الذين تضلّعوا بمهمّة توسيع دار الإسلام وجعلوا من الجهاد عنصراً من عناصر إيديولوجيّتهم<sup>٣٠</sup>. وكان الشّام مركز الدّولة الأمويّة لتنظيم حملات متواصلة على البيزنطيّين خاصّة في فصل الصّيف. لكنهم نجحوا في التوسّع على مجالات شاسعة في الشّرق كبلاد ما وراء النّهر والهند وفتحوا في الغرب إفريقيّة والمغرب وشبه الجزيرة الإيبيريّة أو الأندلس.

(٢٦) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٧٦

(٢٧) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٧٦

(٢٨) هشام جعيط، في السيرة النبوية، مسيرة محمّد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ٢٠١٥، ص ١٩١

(٢٩) هشام جعيط، مرجع مذکور، ص ٢٠٥-٢٠٦

(٣٠) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٢٤

كما وظّف الأمويون إيديولوجيا الجهاد حسب رأيي لمقاومة أعدائهم في الفتنة الثانية وأساسًا في واقعة الحرّة بالمدينة. فقد حرّض مسلم بن عقبة المرّي جند الشّام على قتال أهل المدينة -الكفّار والخارجين عن طاعة الخليفة يزيد بن معاوية. ودعاهم للإستشهاد في سبيل الله<sup>٣١</sup>. وظهر خطاب الجهاد أيضًا في فترة الخليفة عبد الملك بن مروان عندما هبّ الحجاج بن يوسف التّقفى لقتال الخوارج الأزارقة -المارقين عن الدين<sup>٣٢</sup>.

ولم تقتصر عروبة الدّولة على هذه العناصر الآنفه الذّكر بل سبق أن درست جوانب أخرى من عروبة الدّولة الأمويّة وهي وجود تيّارات داخل الدّولة ابتداءً من عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وهي القيسيّة واليمنيّة وتعصّب الدّولة أي الخليفة وعمّاله إلى أحد هذه التيّارات. وقد غلبت العصبيّة على الفترة المروانيّة، وكانت هذه العصبيّة لعبة بين قوى داخل الدّولة. وقد تميّزت القيسيّة بروحها التوسّعيّة. بينما تميّزت اليمنيّة بتشجيعها لقوى الإنصهار بين العرب والموالي. وقد انحلّ الشرف وذابت القبيلة في آخر الفترة الأمويّة. وتطوّر الجيش إلى قوى شبه نظاميّة وكتل متصارعة ومتنافسة. وكانت هذه العصبيّة القبليّة القيسيّة واليمنيّة من أهم أسباب سقوط الدّولة الأمويّة<sup>٣٣</sup>. كما بيّن الأستاذ عزيز العظمة كيفيّة اندماج الأمويين في المجال الشّامي. فقد مكّنت الهجرة الضّئيلة للعرب إلى شمال وجنوب الشّام بعد الفتح العربي الإسلامي من انصهار الأمويين في المجال. واتّبع الأمويون نفس التّقاليد التي اتّبعها البيزنطيّون في منحهم الإقطاعات للجند لاستغلالها، وفي امتلاك أراضي الأباطرة البيزنطيّين. وحافظ الأمويون على نفس التّقنيات الزراعيّة واهتمّوا بالفلاحة حيث جلبوا بذورًا جديدة وزراعات جديدة كقصب السّكر والموز. واستعملوا الكنائس وحولوها إلى قصور مثل هشام بن عبد الملك في الرّصافة<sup>٣٤</sup>. وأعتقد أنّ الجذور القرشيّة للأمويين كانت حافزًا لهم للاشغال بالتجارة والزّراعة. كما تمكّن الأمويون من الالتحام إيديولوجيًا بأهل الشّام واستندوا إليهم في إطار الإقليميّة الشّاميّة. وعندما تفكّكت علاقة الدّولة بأهل الشّام، دخلت الدّولة في فترة الفتنة الثالثة<sup>٣٥</sup>. وكان تعريب النّقود من بين مكّونات الشّخصيّة الأمويّة.

### تعريب النّقود وتركيز الهويّة العربيّة الإسلاميّة

فقد كان الأمويون حسّاسين للتجارة نظرًا لجذورهم القرشيّة، فكانوا حريصين على الحدود الشماليّة (شمال الشّام والعراق) بالتّنسيق مع الجنوب (البحر الأحمر والخليج العربي). وكانت المعاملات التّقديّة تقوم على نفس النّقود الموجودة فيما قبل، حيث كان الخراج والجزية يدفعان

(٣١) الطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، القاهرة، ١٩٧٩، ج ٥، ص ٤٩٠

(٣٢) الطّبري، مصدر مذکور، ج ٦، ص ٢٦٢-٢٦٤

(٣٣) بئينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٣٣

(٣٤) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٠٣

(٣٥) عمّار العشي، بلاد الشّام في القرن الأوّل وبداية القرن الثّاني الهجري، منشورات الجمل، بغداد-بيروت، ٢٠١٦، ص ١٤٨٤

ذهباً في المناطق التابعة سابقاً لبيزنطة كالشام ومصر. بينما دفعت هذه الضرائب فضة في المناطق الشرقية التابعة سابقاً للسيطرة الساسانية. فكان هذا الإستعمال المزدوج للنقود يسبب نوعاً من الإضطراب داخل الدولة. مما دفع بالخليفة عبد الملك بن مروان إلى تعريب النقود بهدف توحيد وهيكله الدولة.<sup>٣٦</sup>

لقد ربط المؤرخ بين حبّ وحذق الأمويين للتجارة منذ الفترة الماقبل إسلامية وحساسيتهم لأهميّة النقود.

ويرى المؤرخ عزيز العظمة أنّ الأمويين كانوا ملوكاً على شاكلة البيزنطيين. كما أنهم كانوا يرون أنفسهم الوارثين لهم. لكنهم كانوا رافضين لعملية الانصهار والثقاف مع الفرس.<sup>٣٧</sup> وأسس عبد الملك بن مروان الدينار المنقوش بالحرف العربي. كما حرص الخليفة عبد الملك بن مروان زمن ثورة عبد الله بن الزبير على نقش صورته على النقود لكنّ شعره الطويل ولحيته لا يحيلان على صورة الإمبراطور بل على صورة المسيح.<sup>٣٨</sup> كما أحدث الخليفة عبد الملك بن مروان استقلالاً عن النقود البيزنطية والساسانية فكان الدينار الذهبي والدرهم الفضي مصدر هيمنة للأمويين على العالم.<sup>٣٩</sup>

وركّز المؤرخ على التحوّلات التي طرأت على النقود في الفترة الأموية. فقد كان الأمويون يستعملون النقود الساسانية التي كانت تحتوي على صور للملوك الفرس خسرو II ويزدجرد III. وكانت الكتابة المستعملة هي البهلوية. لكن وقع تعويض الملوك الساسانيين بالولاة الأمويين والشهادة والهلال. وكانت النقود في الشام تحتوي على الإمبراطور والصليب، فعوّضت بالخليفة الجالس. وكانت سياسة عبد الملك سياسة ممرّكة ومركّزة لتوحيد التعامل بالنقود داخل الإمبراطورية. ورغم تعريبه للنقود، فقد كان الخليفة عبد الملك بن مروان متأثراً بالملوك الغساسنة ونقل عنهم مظاهر السلطة البيزنطية في البلاط وفي معمار مدينة دمشق. وكان السكّان المسيحيون بالشام يساعدون على بقاء هذه التأثيرات.

حسب إعتقادي، يعتبر تعريب النقود ثورة سياسية وإيديولوجية ضدّ الإمبراطورية البيزنطية من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان. فقد كان له من الشجاعة التي دفعته إلى تحقيق إستقلالية الدولة عن بيزنطة وعن الفرس لأول مرة في تاريخ الإسلام.<sup>٤٠</sup> وهذا ما دفع بفلهاوزن للقول: «بأنه حيثما كان الإسلام متمشياً مع العروبة في الأغراض فإنّه كان يلائم أغراض عبد الملك»<sup>٤١</sup>. ولم يهب

(٣٦) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٠١

(٣٧) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٠١

(٣٨) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٢٤

(٣٩) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٢٥

(٤٠) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٢٤٠-٢٤١

(٤١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٠٨



الخليفة عبد الملك بن مروان تهديدات الإمبراطور البيزنطي الذي هدده بنقش صورة تمس من حرمة الرسول في النقود البيزنطية. وكان نقش سورة الإخلاص على النقود وذكر الرسول دلالة على تركيز للإسلام والعروبة وعلى أهمية القرآن كدستور للمسلمين وكذلك على مكانة الرسول كخاتم الأنبياء. كما أن تعريب أحد الرموز الأموية للسلطة وهي النقود، يعتبر حدثاً هاماً بالنسبة للدولة الأموية التي ستكتسي طابعاً إمبراطورياً عربياً وإسلامياً. وتعتبر الإنجازات المعمارية عنصراً آخر من عناصر تركيز السلطة الأموية وتركيز الهوية العربية الإسلامية.

### الإنجازات المعمارية الأموية

وكانت الإنجازات المعمارية الضخمة للخلفاء الأمويين خاصة منهم عبد الملك بن مروان والوليد (قبة الصخرة وإعادة بناء جامع عمرو بن العاص بالفسطاط) فرصة لتخليد ذكرى الخليفين وإبراز عظمة الدولة-الإمبراطورية مقارنة بالإمبراطوريات السابقة. كما كان قصر عمرة أحسن تعبير للملكية العالمية للأمويين وإن كان الخليفة الباني للقصر -الوليد بن يزيد (٧٤٣-٧٤٤)- لا يضاها عمه الخليفة هشام بن عبد الملك-أعقل بني أمية<sup>٤٢</sup>. وكان هذا القصر يحتوي على التأثيرات اليونانية وخلد حب الأمويين للملذات والمحرّمات و«الاستهتار»<sup>٤٣</sup> كالخمر والجواري والصيد. وظهرت النقائش اليونانية في هذا القصر رغم التعريب الذي فرضه عبد الملك بن مروان. وهذا دليل على ارتباط هذه اللغة بالملكية. واعتبر المؤرخ أن لوحة الستة ملوك الموجودة بقصر عمرة تبين عالمية الخلافة الأموية وسيطرة الخليفة على كل ملوك العالم كقيصر ملك الرومان وخسرو ملك الساسانيين والتجاشي ملك الحبشة ورودريق ملك القوط وخابان ملك الخزر وملك الصين<sup>٤٤</sup>.

وكانت العمارة الأموية الدينية حسب اعتقادي خاصة منها قبة الصخرة ببيت المقدس تعبيراً على قوة الإسلام تجاه بيزنطة المتاخمة للشام مركز الخلافة الأموية. كما كانت قبة الصخرة رمزاً ومسجداً يحجّ إليه الناس عندما كان ابن الزبير «محتلاً» للكعبة. كما سعى الخليفة الوليد بن عبد الملك لتمثيل عظمة الإسلام ببناؤه لجامع دمشق. وأحدث الأمويون ثورة على مستوى العمارة الدينية بما أنهم أسسوا فناً ومعماراً عربياً إسلامياً لتخليد إسمهم ولتمجيد الإسلام. كما كان بناؤهم للقصور في بادية الشام تعبيراً عن دنيويتهم وتطويرهم لرموز السلطة (الصيد واللهو والتمتع بالملذات). واعتمد الأمويون على لقب خليفة الله كعنصر من عناصر الشخصية الأموية.

(٤٢) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٠٧

(٤٣) اعتبر أعداء الأمويين (خاصة منهم الشيعة) أن مظاهر السلطة خاصة الخمر والإنغماس في الملذات -كالإستمتاع بصحبة النساء والجواري- والصيد واللعب بالقردة، اعتبروها استهتاراً بالدين وإهمالاً لشؤون الحكم. وكان ذلك في وصفهم للخليفة يزيد بن معاوية.

(٤٤) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٠٨-٥٠٩

## إيديولوجيا الملك الأموي أو خلافة الله

وتطوّرت إيديولوجيا الملك لدى الخلفاء الأمويين خاصة منهم معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم المتحكّمين في عجلة الزمن يرفعون من أرادوا ويحطّون من شأن من أرادوا<sup>٤٥</sup>. وربط الخلفاء الأمويون أنفسهم بالمقدرة الإلهية وطوّعوا لخدمة مصالحهم. فكانت علاقتهم مباشرة وقريبة من الله مثلهم في ذلك مثل ملوك الفترة القديمة. فوضعوا إيديولوجيا جديدة، هي إيديولوجيا خلافة الله التي تتموقع في المجال الدني لكنّها تركّز الملكيّة بكلّ مظاهرها كالإبعاد بين الملك والناس.

ويبدو أنّ الأمويين ورثوا هذا اللقب من الخليفة عثمان بن عفّان الذي استعمل هذا اللقب. واستعمل عبد الله ابن الزبير عند إعلانه عصيان الخليفة الأموي، لقب خليفة رسول الله<sup>٤٦</sup>، بما أنّه يعتبر نفسه من زمرة أبناء الصحابة (فأباه الزبير بن العوّام وأمّه أسماء بنت أبي بكر). كما ارتبط لقب خليفة الله بإيديولوجيا الإمبراطوريّة البيزنطيّة-المسيحيّة التي تعتبر الإمبراطور مالكا للعالم<sup>٤٧</sup>. ويذكر المؤرّخ أنّ الخليفة دخل مع الله في سباق في سبيل السيطرة على الكون. فالخليفة لديه قدرات خارقة للعادة كالإستسقاء أو المقدرة على إنزال المطر، وبعث نور الشّمس لدى شعراء البلاط الأموي. وأعداء الخليفة الأموي هم أعداء الله، وجيش الخليفة هو جيش الله وثروة الخليفة هي ثروة الله. وهذا ما دفع بالخلفاء الثلاثة معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك يجلسون عند إلقاءهم للخطبة في مسجد الرسول بالمدينة. ولم يكن هذا اللقب لقباً مستعملاً للتملّق من قبل الشّعراء بل كان لقباً رسمياً في الخطب والرّسائل والنّقود. وكان البلاط الأموي مسرحاً لإبراز مقدرة الله في شخص الخليفة الحاضر بجسده<sup>٤٨</sup>. وسيعمّق الخلفاء العبّاسيون هذه «الفلسفة».

ويمكن أن أضيف من زاوية دراستي للتّاريخ السياسيّ الأموي، أنّ لقب خليفة الله عرف تراجعاً في فترة الخليفة عمر بن عبد العزيز. فقد رفض هذا الأخير تلقيبه بخليفة الله في الأرض لأنّ خليفة الله في الأرض هو داود. وكان عمر بن عبد العزيز يحبّ أن يلقّب باسمه أو بكنيته أو بأمر المؤمنين<sup>٤٩</sup>. فأضعف عمر بن عبد العزيز بذلك من الإيديولوجيا الأمويّة. لكنّ الخلفاء بعده كيزيد وهشام استعملوا لقب خليفة الله من جديد. كما طوّر الخلفاء الأمويون ألقاباً أخرى كأمين الله، وهو لقب أسنده الخليفة عبد الملك بن مروان إلى نفسه<sup>٥٠</sup>. وتعتبر الأمانة إحدى الصّفات الإلهيّة،

(٤٥) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١١

(٤٦) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٢

(٤٧) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٣

(٤٨) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٣

(٤٩) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٢٢؛ بثينة بن حسين، مرجع مذکور،

ص ٣٢٢

(٥٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، بيروت، ١٩٧٩، ج ٣، ص ١٣٤

وقد اعتبر عبد الملك نفسه أميناً على «الأمة» ربّما بعد القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير واسترجاع مجال الدولة الأموية. فقد تولى عبد الملك الخلافة في ظرف صعب حيث كان عبد الله بن الزبير مسيطراً على العراق والحجاز. فخاض حرباً ضدّ مصعب بن الزبير بالعراق وقتله واستردّ هذا المجال. ثمّ عين الحجاج بن يوسف على حرب ابن الزبير وضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير وصلبه بها. فكان استرجاع مجال الخلافة الأموية التقليدي عبارة عن برهنة فعلية لأمانة عبد الملك بن مروان وحفظه لملك الله. كما لقّب الخليفة هشام بن عبد الملك نفسه بخزان الله لخزنه الأموال بيت مال الدولة. وهو لا يعطي هذه الأموال إلا بعد أن يسمح الله له بذلك<sup>٥١</sup>. وقد اشتهر هذا الخليفة بحسن تدبيره وبخله وخزنه للأموال. «ويهدف هذا الخطاب للتصويه على الناس بينما استأثر الخلفاء الأمويون في الحقيقة بالأموال وكانوا يعطونها لمن يريدون»<sup>٥٢</sup>. ولم يهمل الخلفاء الأمويون ذكرى الرسول كما ذكر ذلك أعداؤهم.

### مكانة الرسول في الإيديولوجيا الأموية

وربط الخلفاء الأمويون وأساساً المرثيون «شرعيتهم» التاريخية بالرسول محمد. ولم يكن هذا شأن الخلفاء الأمويين السفيانيين حيث طمس الخليفة المؤسس للدولة معاوية بن أبي سفيان، الوعي التاريخي وغيب ذكر الرسول واعتبر نفسه ولي الخليفة المقتول عثمان بن عفان والمطالب بدمه. وكانت وضعيّة الخليفة يزيد بن معاوية أصعب بما أنه قضى قضاءً مبرماً على ذكرى الرسول بقتله لسبطه الحسين بن عليّ بكربلاء. وقد اعتبر الخلفاء المرثيون أنّهم ينحدرون من عثمان ومروان وفهر ومحمد<sup>٥٣</sup>. وقد منحهم الرسول محمد «كاريهما» لحكمهم، وأدخلوا الطابع الملكي في العمارة على قبره في المدينة. وهذا يفند ما يذكر عن الطابع الدنيوي للخلافة الأموية. فقد نشر الأمويون الإسلام في فترة الخلافة عبد الملك بن مروان وقربوه من العامة عن طريق وسائل عديدة كالتقائش والتفود وأوراق البردي والخواتم التي تتميز بوحدة اللغة والخطاب السياسي والدنيوي. ويتنزل بناء قبة الصخرة في هذا الإطار. وكانت هذه العملية متزامنة مع إعادة صياغة المصحف. فقد أصبح الإسلام ديناً عالمياً في عهد الأمويين سليلي الرسول محمد وإبتداءً من عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. وكان على المعارضين للحكم الأموي خاصة منهم الزبيريين والخوارج أن يدخلوا في طاعة الأمويين<sup>٥٤</sup>. كما بنى الأمويون صورة النبي محمد البطل الملحمي والأسطوري في المغازي كعنصر من عناصر السيرة. وابتدأ تدوين تاريخ النبوة مع الزهري وظهر النبي محمد جدّاً للأمويين ومؤسساً لنواة

(٥١) البلاذري أنساب الأشراف، بيروت، ١٩٩٦، ج٦، ص ٤٧

(٥٢) بئينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٢٣

(٥٣) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٥

(٥٤) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٦-٥١٧

إمبراطوريتهم العربية بما أنه أول ملك عربي حسب بعض الكتاب المسيحيين<sup>٥٥</sup>. وأعتقد أن الدولة الأموية وصلت إلى درجة من النضج في فترة الخليفة هشام بن عبد الملك، فتغيّرت آليات التعامل مع ذكرى الرسول. كما أن هذا الخليفة كان متعلّقاً وقرب منه الفقيه الزهري وفتح له باب الكتابة في السيرة النبوية. وقد توصلت من خلال أبحاثي أيضاً إلى معرفة أسس التطور في الفقه والقضاء في الفترة الأموية. فقد أسس الأمويون الفقه بواسطة قضاتهم، وكانت أحكامهم تستند إلى الخلفاء الذين سبقوهم (باستثناء عليّ بن أبي طالب). فقد كان القضاء سلطة إدارية طوّرت الأحكام وساهمت في تطور الفقه خاصة بالعراق. ونشأت فئة من القضاة من التابعين استنبطوا واجتهدوا في الأحكام من أمثال شريح ابن الحارث الكندي والشعبي بالكوفة. كما كان القضاء مركزاً بيد الخلفاء الأمويين الذين سعوا لتطوير هذه المؤسسة في إطار تركيز مؤسسات الدولة وتركيز الإسلام<sup>٥٦</sup>. لكنهم لم يرجعوا للرسول إلا في حالات نادرة<sup>٥٧</sup>. وترجع كتابة الحديث بصفة رسمية للخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠م) الذي أعطى للرسول مكانة متميزة على حساب الخلفاء الأمويين. فقد كان هذا الخليفة يسعى جاهداً لإحياء ذكرى الخليفة عمر بن الخطاب، فدوّن السنة التي تمثل عنصراً هاماً من عناصر الإسلام إلى جانب القرآن على حساب الإيديولوجيا الأموية. كما سعى لتطبيق سنة الرسول<sup>٥٨</sup>. فأحدث ثورة على الخلفاء الأمويين بنهذه لكل مظاهر السلطة والبروتوكول وتفرّغه لردّ المظالم والتعبّد. وكانت إجراءات الخليفة عمر بن عبد العزيز في إعتقادي مؤذنة بتحطيم الشرعية الدينية الأموية.

وقد ظهرت بوادر هذه المكانة النبوية في النقود الأموية التي ضربت بعد انتصار الخليفة عبد الملك بن مروان على الزبيريين والخوارج. فكتبت على النقود «محمد رسول الله» إلى جانب الشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله». وكانت النقود تؤكّد على أهمية الخليفة لكنّها لم تجسده وسيظهر في التماثيل بالقصور الأموية. فكان بذلك الخليفة-الرمز المؤسس للدولة الإمبراطورية أو الشاهنشاه أي ملك الملوك الساسانيين تتزامن مع صورة الرسول محمد<sup>٥٩</sup>. فقد ظهر ذلك في تعميم المحراب (كعنصر معماري في المسجد) زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك. فالمحراب يبيّن اتجاه القبلة لكنّه يذكر المسلمين بدور الخليفة -خليفة رسول الله- كما كان الخليفة الجالس والماسك سيفه في النقود الأموية يعبر عن دور خلفاء الله الذين هم خلفاء محمد أيضاً<sup>٦٠</sup>. ويبدو هذا الدور في الأشعار والبروتوكول والرّسائل.

(٥٥) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٨

(٥٦) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ١٥٩-٢٠٤

(٥٧) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥١٩

(٥٨) ابن عبد الحكم، مصدر مذکور، ص ١٤٣

(٥٩) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٢١

(٦٠) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٢٢

لقد كوّنت كل من الخلافة الأموية والخلافة العباسية مزيجاً من التأثيرات، تأثير الديانات السماوية والماضي الإمبراطوري و قدسية شخص الملك تواصلت طيلة القرون الوسطى إلى حين ظهور إمبراطوريات جديدة كالعثمانيين والمغول. فقد تمكّن الأمويون من فرض سلطتهم على إمبراطورية شاسعة بفضل تركيز نظام العملة والمقدرة الإلهية المتمثلة في خلافة الله والمركزية الإمبراطورية الموروثة عن الفترة القديمة<sup>٦١</sup>. فقد ارتكزت الدولة الأموية على الدين الإسلامي والسياسة وساعدها في تطوير البعد الإمبراطوري الفتوحات أو الجهاد. وظهرت هذه الهيمنة في المعمار والنقائش العربية والإصلاحات الإدارية<sup>٦٢</sup>. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد من كبار المنجزين لبناءات ضخمة وتركا نقائش عديدة. وهذه النقائش لها علاقة بالتقود. كما كان المجهود المخصص للقرآن (تعميمه وتوحيده) مجهوداً يرمي نوع من التوحيد الإداري كان ذلك بعد الحرب الأهلية الثانية أو الفتنة الثانية (٦٨٠-٦٩٢م).

لكن رغم كل هذه المجهودات لتركيز ذكرى الرسول، فقد رفض الأمويون تدوين الحديث<sup>٦٣</sup>. وكان هذا التصرف يخفي في إعتقادي إحساس الأمويين بالنقص في شرعيتهم التاريخية. فقد عثم الخلفاء السفينائيون على الرسول بعدم ذكره في خطبهم بينما ركّزوا إيديولوجيا خليفة الله<sup>٦٤</sup>. وكان أكبر تحدّ لذكرى الرسول قام به الخليفة معاوية ابن أبي سفيان في أول عهده بالخلافة، هو إلحاق زياد ابن أبيه بنسبه -فهو ابن أبي سفيان بن حرب من سمية- فقبل له «يا معاوية قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وإنك قضيت بالولد للعاهر وجعلت للفراش الحجر»<sup>٦٥</sup>. فقد كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان حريصاً على جلب الكفاءات العربية وأصحاب المقدرة السياسية والدهاء في إطار الدنيوية التي تميّز بها حكمه. وكان زياد مكسباً للدولة الأموية خاصة لتمرسه بالسلطة في العراق منذ خلافة عمر ابن الخطّاب. فكان على معاوية أن يمنحه نسباً «شريعاً» حتى يعينه على ولاية العراق. فاستقدم الشهود وضبط نسب زياد على حساب السنة النبوية. كما قتل مسلم بن عقبة المزني قائد مقاتلة الشام الذين أرسلهم الخليفة يزيد بن معاوية لقتال أهل المدينة- رجليين من قريش لأنهما بايعاه على كتاب الله وسنة رسوله<sup>٦٦</sup> ولم يبايعا ليزيد بن معاوية. وكان مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء من قبل والي العراق عبيد الله بن زياد وبأمر من الخليفة يزيد بن معاوية، تخريب لذكرى الرسول. فالحسين هو سبط الرسول وقتله

(٦١) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٥٢٦-٥٢٧

(٦٢) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٣٠

(٦٣) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٨٥

(٦٤) بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٢٧

Crone Patricia. & Hinds Martin, *God's Caliph Religious Authority in the First Centuries of Islam*, Cambridge, 1986, p.28.

(٦٥) اليعقوبي، مصدر مذکور، ج ٢، ص ٢٩٥؛ بثينة بن حسين، مرجع مذکور، ص ٣٢٧

(٦٦) الطبري، مصدر مذکور، ج ٥، ص ٤٩٣؛ بثينة بن حسين، الفتنة الثانية، ص ٦١٥

هو تعظيم على النبي وقطع للرحم الذي يربطهم ببني عمهم من قريش آل علي بن أبي طالب<sup>٦٧</sup>. فالسفيانيون يحسون بنقص في شرعيتهم التاريخية تجاه علي بن أبي طالب، وكان إحساس النقص لدى يزيد بن معاوية مضاعفًا تجاه الحسين بن علي. كما عثم الخلفاء المروانيون على السنة حيث كان الخليفة عبد الملك بن مروان أول من نهى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>٦٨</sup> رغم المجهود الذي عرف به في تركيز ذكرى الرسول بتعريبه للنقود. وسيستغل الخلفاء العبّاسيون ذكرى الرسول والقرابة منه لإقصاء العلويين ولبناء إيديولوجيتهم التي تقوم على العبّاس بن عبد المطّلب، عم الرسول. كما اهتم الأمويون بالقرآن كعنصر من عناصر الإسلام.

### اهتمام الأمويين بالقرآن

أبقى الحجّاج على نسخة عثمان بن عفّان ووقع القضاء على بقية النسخ المنسوبة لأبي موسى الأشعري بالبصرة وعبد الله بن مسعود بالكوفة ومقداد بن الأسود بدمشق وأبي بن كعب في بقية أنحاء الشّام.

وتتمثل نسخة عثمان في النسخة التي نقلها البصريون، والنسخة المدينية المنقولة عن أبي العالية عن زيد بن ثابت، وعن أبي بن كعب وعمر بن الخطّاب. كما نقلت النسخة المدينية عن الأنصار (أنس بن مالك).

فقد عاقب سمره بن جندب الفزاري -عامل زياد بن أبي سفيان- عددًا من الرّجال استعملوا نسخة أخرى من القرآن<sup>٦٩</sup>. كما وضع الحجّاج بن يوسف الرّسم للقرآن (الهمزة والشدة). وأرسلت النسخ للولايات ورفض عبد العزيز بن مروان (أخ الخليفة عبد الملك بن مروان وعامله على مصر) أن يقبل بهذه النسخة المفروضة من قبل الدولة<sup>٧٠</sup>. وكان الحسن البصري من أهمّ القراء في اللّجنة التي عينها الحجّاج لتوحيد النصّ القرآني ورسمه. وكان قراء الكوفة من أهمّ المعارضين لسياسة الحجّاج في فرض المصحف العثماني<sup>٧١</sup>. وهبوا مع ابن الأشعث في ثورته ضدّ الدولة-وكانت هذه الثورة آخر ثورة كبرى ضدّ الحجّاج - ففضى عليهم قضاءً مبرما مستعملاً كلّ قوّة الدولة الأموية<sup>٧٢</sup>. ويبدو عمل الأمويين متناقضًا: فمن ناحية، كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يتلقّى رسائل من عامله على العراق زياد بن أبي سفيان وأبي هريرة متعلّقة بالرسول. كما كان عروة بن الزبير يرسل رسائل للخليفة عبد الملك بن مروان في نفس الموضوع.

(٦٧) بثينة بن حسين، الفتنة الثانية، ص ٣٣٧-٤٤٦

(٦٨) السيوطي، تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٦٠

(٦٩) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٨٧

(٧٠) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٨٦

(٧١) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٨٧-٤٨٨

(٧٢) عزيز العظمة، مرجع مذکور، ص ٤٨٨

لكن رغم كل هذه المجهودات لتركيز الإسلام والعروبة، فقد كان الأمويون يعتَمون على القرآن. وكان هذا التصرف يخفي في إعتقادي إحساس الأمويين بالنقص في شرعيتهم التاريخية. فقد عثم الخلفاء السُفَيانيون وولاتهم على القرآن بقتل سمرة بن جندب الفزاري-نائب زياد بن أبي سفيان بالبصرة- سبعة وأربعين رجلاً ممن جمعوا القرآن<sup>٧٣</sup>. ووظف الخلفاء والولاة الأمويون القرآن لتركيز مصالحهم السياسيّة والإيديولوجيّة. فقد حمل الخليفة يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأبنائه وأصحابه مسؤوليّة عصيانهم للخليفة وكذلك مسؤوليّة مقتلهم في كربلاء بذكره لسورة الشورى<sup>٧٤</sup>: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير».

## الخاتمة

تكمّن أهميّة هذا الكتاب في الرّبط بين العناصر المتعلّقة بنشأة الأديان (الوثنيّة في المحيط اليوناني والرّوماني والبيزنطي ثمّ البيئّة العربيّة الوثنيّة والإسلاميّة) ودور الدّولة الأمويّة في تركيز الإسلام بتوسيع حركة الجهاد وبناء الجوامع في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وسكّ العملة العربيّة بالإستقلال عن بيزنطة وعن السّاسانيين، ونشر مصحف عثمان وإحداث الرّسم من قبل الحجاج بن يوسف الثّقفي. كما مجدّ الرّسول ببناء قبّة الصّخرة ببيت المقدس وفي الرّسائل خاصّة بين عروة بن الرّبير والخليفة عبد الملك بن مروان. لكنّ كلّ هذه المجهودات حقّر منها أعداؤهم، وطمسوا الوعي التاريخي الأموي. فقد بينوا أنّ الطّابع الملكي للدّولة يشبه الطّابع السّاساني والبيزنطي. وبالتالي كانت هذه الدّولة دنيويّة -حسب رأي أعداء الأمويين- ولم تول عناية بالشّأن الدّيني. ويرجع هذا «التّحامل» على إنجازات الأمويين، لرفض الخلفاء الأمويين كتابة الحديث النّبوي وتعظيمهم على القرآن وتقتيلهم للشّيعة خاصّة منهم الحسين بن عليّ. كما كان جمهور المسلمين من الصّحابة يعتبرون أنّهم منقوصو الشّرعيّة الدّينيّة مقارنة مع أبناء الصّحابة. وتعتبر قراءة الأستاذ عزيز العظمة قراءة جديدة للدّولة الأمويّة لأنّه فسّر «مسؤوليّة» الأمويين في إخراج العرب المسلمين من مجالهم الضيق وإدخالهم للتّاريخ الإمبراطوري بعد تحليله الثريّ لنشأة الأديان الوثنيّة والسّماويّة. وقد حاولت التّفاعل مع ما كتبه أستاذنا الذي لا أختلف معه كثيراً في مقوّمات الدّولة الأمويّة التي كانت الدّولة الأولى في الإسلام، المتكاملة على مستوى المؤسّسات. وورث عنها العباسيون كلّ أجهزتها ولم يتمكّنوا مواصلة الجهاد.

(٧٣) الطبري مصدر مذکور، ج ٥، ص ٢٣٧

(٧٤) /٧٤ آية ٣٠